حول الحياة

طيران الجسد

الفضيلة الناقصة

الزمن الضائع

عالم بلا جريمة

تنمية الخيال

بيان إلى القرن 21

طيران الجسد

...في ممرات الحياة الضيقة تجمع اليونانيون القدامى مشرعين سيوفهم ملوحين بحرابهم للإبحار لاسترداد معشوقتهم «هيلانة»، فهاجت البحار وماجت بزبدها، رافضة إبحار السفن المحملة بالجيوش، فطالب كالخاس العراف بذبح إيفيجينيا ـ ابنة أجامنون ـ إرضاءً للآلهة، وعندما جيء بها تفجرت ينابيع الدموع من عيني والدها وأخذ يلوّح بردائه طارداً خوفه وهواجسه، وازداد هلعه عندما خاطبته: ـ يا أبتاه افعل ما أُمرت به، إنني أقدم جسدي راضية ما دامت هذه مشيئة الآلهة، فانتزع الكاهن كالخاس سيفه المسلول لتنعكس أشعة الشمس اللازوردية على السيف ويتوقف «أبولو»[1] عن جر عربة الشمس، فتتجمد مياه الأنهار ويهوى كالخاس بالسيف على رقبة «ايفيجينيا» فتتفجر البراكين، وتزمجر الحمم الحمراء على جوانبها، عند ذاك توقفت أنفاس الحضور، فتحولت السحب إلى اللون الأسود، ليظهر غزال بري جميل تتفجر الدماء من شرايينه. وتساءل الحاضرون: أين اختفت «إيفيجينيا»[2] ومتى استبدلتها الآلهة بذلك الغزال الجميل[3]؟ ليس للبشر أن يعلموا بما تخبئه الآلهة لهم.

ولا تخلو الأسطورة المشار إليها من رمز لأهمية الجسد كقربان درج البشر على تقديمه للآلهة مقابل تسهيل أمورهم الحياتية، إلى ان استُبدِل الجسد البشري بقربان حيواني.

يُحيلُ كل منا رؤيته الخاصة عن الجسد وفقًا لبيئته الثقافية ويتعامل من خلالها، فالجسد هو القربان وهو المحبوب. وكيفية التعامل مع الجسد

---

(١) إله الشمس في الميثولوجيا الإغريقية وهو أخو ديانا آلهة القمر.

(٢) للمزيد من التفاصيل يتم الرجوع إلى مسرحية «إيفيجينيا في أوليس» ليوريبيديس.

(٣) مسخ الكائنات ـ أوفيد ـ ترجمة الدكتور ثروت عكاشة

تتوقف على المستويات الاجتماعية والثقافية، فيذهب المريض للطبيب طلبًا لعلاج جسده، وفي حال الفشل يدلف إلى أحد الماكرين من المشعوذين أو السحرة، أو يلجأ للتنويم المغناطيسي أو... الخ. وحين يتجاوز الطبيب، فإنه يكشف عن إدراكه بأن جسده لا يخضع فقط للعلاج الطبي، وأنه مرتبط بالكون بشكل غامض ومبهم. فاللجوء في الطب الشعبي إلى عنصر معدني يساعد على الشفاء من مرض ما لتشابهه مع العضو المصاب، اللجوء في أحيانٍ أخرى، إلى ينابيع معينة أو إلى الأشجار أو النصب التاريخية التي يفترض بأنها ستساعد على الشفاء... هذه السلوكيات هي انعكاس للمفهوم الإنساني للجسد.

ولازال الاعتقاد سائداً بأن للجسد تأثيرات غير مرئية. فالمرأة الحائض في بعض المجتمعات الريفية لا يُسمح لها بتحضير الأجبان أو الزبدة، أو حلب البقرة، كي لا تفسدها، وكأن الدم النازف من الجسد الواهي لديه القدرة على التأثير خارج واقعه، وليس ببعيد عنه الحركات الفكرية المتطرفة ونظرتها الضيقة إلى الجسد الأنثوي، الداعية إلى إخفائه وتحريم رؤيته، لأنها محاولة للإمساك بعالم ينساب من بين أيديهم.

إن كلاً منا يسكن جسداً يستحيل الهروب منه، ولكنَّ بعضًا تفيض ذاته خارج الجسد. وعند بعضٍ آخرَ يكون الجسد رداءً أوسع من صاحبه، وداخل الجسد الأخير خواء. فلقد أثقل الإنسان بجسد يسهل التأثير عليه بالمرض والبتر والحبس، ويتحول إلى آلة بشرية إذا فقد مالكه الفكر.

والنفس ساكنة الجسد، ترضى وتسعد إن كان صاحبها قادراً على التكيف والاندماج مع بيئته الاجتماعية والمادية. فالبيئة الاجتماعية شريك محايد في عملية السعادة، والأمر هنا أشبه بعصفورٍ جميل يحمل

قلبي ويسعى لبناء عش في غابة خارج دهاليز الزمن. فالغابة هنا لن تكترث بنجاح عملية البناء أو إخفاقها، ولن يحرك أحد ساكناً لمساعدة العصفور، بغض النظر عن جهوده ورغباته. والتكيف مع المحيط الاجتماعي، المتلاطمة أمواجه، من أجل السعادة لن يمنحه أحد لك، فبالإرادة تصنع السعادة مع من تحب، وبالعمل تولد معايير جديدة قد تبدو للوهلة الأولى غريبة، ففي البدء لم تكن هناك طرقات، ولكن عندما يسير كثير من البشر في اتجاه واحد تتضح معالم الطريق.

والواقع الاجتماعي اليومي المعاش متغير وثابت في اللحظة ذاتها، كطاولة الطعام التي تبدو لك ساكنة، ولكنها حقيقة تحتوي على ملايين الإلكترونات والنيوترونات الدائمة الحركة. ويتغير هذا الواقع من الداخل بتراكم الاختلافات اليومية البسيطة في القيم والسلوكيات، ومع مرور الزمن والتحدي الموجود بداخلنا يصنع واقع اجتماعي جديد لمفاهيم جديدة تتماشى مع حركة الجسد ورغباته.

فالطبيب الذي يهتم بالمرض وشفاء الجسد ولا يعطي اهتمامه لما هو أبعد من هذا الجسد: للذات، للنفس، فإنه يكون قد ضل الطريق، ذلك أن الجسد مكان عابر لحياة عابرة في ومضة من ومضات الكون.

والمعرفة التشريحية للجسد لا تستطيع قياس درجة الألم الذي يتعرض له الإنسان نتيجة لخداعه أو لمروره في أزمة نفسية.

لتكن حراً في امتلاكك لجسدك، بأن تغذيه أو تدثره بجميل اللباس أو تعامله كطفلك بتلبية رغباته والمحافظة عليه، إلاّ أن الوجود سيختزل بذهاب جسدك. فالإنسان يقهر في أروقة المحاكم والسجون عندما تُقيَّد حرية جسده، فيمنع من الخروج أو يجبر على المجيء إلى مكان محدد

بشكل دوري، والهدف إيلام الجسد وتقييده، وإيلام ما يملكه الإنسان عقاباً للذات البشرية التي هي بمنأى عن التعريف أو الإحساس بها في حلها وترحالها، وتفرُّدها وانعتاقها من الجسد. فهذه الذات أكبر من الجسد ولكنه يحتويها كما يحتوي ـ على استحياء أيضًا ـ عوامل فنائه، إذ إن حرية أعضائنا في التعبير عن ذاتها مفروضة علينا. ولا يكف الجسد عن رفضه لهذا الواقع الذي يكبله إلى الأرض بجاذبية لو برَىء منها لحلّق في عنان السماء، ولاستمتع بالحياة متجاوزاً مراسم الجسد، وطقوس الولادة.

وتبدو المعايير الأخلاقية في النظر إلى الجسد متفاوتة إلى حد هائل من مكان إلى آخر ومن زمان إلى زمان، فما يعدّ «عيبًا» من الأفعال المتعلّقة بالجسد في مكان ما، يعتبر «خيراً فاضلاً» وربما مقدسًا في مكان وزمان آخرين. فلدى بعض قبائل الأسكيمو يقدم الزوج زوجته للنوم مع الضيف، إكرامًا له وتقديراً واحترامًا لمكانته. ولدى قبائل الهنود كانت النساء الأرامل تُدفنُ بمجرد وفاة أزواجهن. وبينما لازالت سيقان المرأة تعتبر عورة في مجتمعاتنا الشرقية، فهي في المجتمعات الغربية تمثل قيمة جمالية.

وفيما يُؤَثِّرُ الاتفاق الاجتماعي بدرجة كبيرة على أحكامنا عن الفضيلة والأخلاق، فإن عدم ثبات العادات وتبدلها يؤدي الى تطور المفاهيم الأخلاقية التي تأتي من جانب فئة قليلة لم ترضخ لرهبة هؤلاء الذين لا يجدون علاقة بين الاتفاق الاجتماعي والمفاهيم الأخلاقية الخيِّرة، ولو لم يوجد أمثال هؤلاء لما انتهى الرِّق، ولبقينا واقفين في سرادق الحداد.

ونصل إلى قمة دراما الجسد في اللحظات الأليمة التي مرَّ بها السيد

المسيح عندما اقتيد أمام بيلاطس الحاكم الروماني للتحقيق، حيث يسأله بيلاطس: «أملك أنت إذن؟». فيرد السيد المسيح: «إنها كانت الغاية التي من أجلها ولدت، والغرض الذي من أجله أتيت إلى العالم، هو أن أكون شاهداً على الحقيقة، وإن كل من كان من أهل الحقيقة ليصغي إلى ما أقول». فيرد بيلاطس بسؤال خالد:«ما الحقيقة؟». ويكبر السؤال وتبرز الإشكالية. إن من النادر أن يتفق الناس على حقيقة معينة أن أذهانهم لا تعني الشيء نفسه، ذلك أن لكل منا معياره الخاص لقياس الأشياء والأفعال، وإخضاعها لمنطق الصواب والخطأ، ندلف إلى الحديث والحوار بالألفاظ نفسها ولكن بلغة مختلفة، فإذا قلت «حقيقي»، وفي ذهنك شيء معين، وقال آخر عن الشيء نفسه «حقيقي» وكان في ذهنه شيء آخر، فتكون لكل منكما حقيقته المختلفة عن الأخرى. فما هو حقيقة سلوك أخلاقي في مجتمع ما، في زمن ما، هو أيضاً حقيقة سلوك غير أخلاقي في مجتمع آخر. إن حدود معرفتنا للعالم مكبلة بالحواس الخمس، وبالعقل بأبعاده الذهنية، وبالإيمان بالمعتقدات، وهي التي تحدد شكل علاقتنا مع جسدنا وأجساد الآخرين.

فعبر التسكع في طرقات الغموض ومابين الضباب والغيوم، يشق العقل البشري طريقه لتبديد الالتباسات وصولاً إلى الحقيقة، التي لن نصل إليها ما لم ننفض الغبار عن البديهيات وننبش في أرضية المعاني ونعيد نحت التماثيل الجامدة لبث الحياة في شرايين الحقيقة.

إن عنوان الجسد ورمز الشخص هو الوجه، أما العينان فهما نافذة القلب. ففي رواية «صورة دوريان جراي» لأوسكار وايلد ومقايضته الخلود مع الشيطان والإبقاء على جسده كما هو عليه، وانعكاس

سلوكياته على صورته لحظة رؤيتها في المرآة التي خبأها عن البشر، وصار يعود إليها من حين إلى آخر، لم يتحمل «دوريان جراي» قبحه الداخلي المنعكس على صورته في المرآة، فأمسك بالسكين وغرسها في جسده، فانتقل القبح من الداخل إلى الخارج حيث تعفن الجسد وتقيأ أحشاءه. تلك الحكاية التي توضح بأن إدراك الإنسان لذاته مرهون بإدراكه لجسده، وهذا الإدراك لن يتأتى إلا من خلال الجسد (الوعاء)، فانظر يا صديقي إلى المرآة واسأل نفسك:. هل تشبه ذاتك؟

وإن لم تجد الإجابة فمزِّق قلبك، ودع النوارس تبتلعه، كما ابتلع الحوت يونس، ولا تستحِ من ذاتك فليس من اللائق أن تسير في الطرقات حاملاً قلبك ما بين يديك.

الفضيلة الناقصة

في إحدى ليالي الصيف، عندما اكتمل القمر وانعكست صورته على ضفاف نهر التايز، تذكرت مصير «أراخني» التي تطاولت على «مينرفا»[1] وادّعت أنها لا تقل مهارة في الغزل عنها، فتنكرت مينرفا على هيئة عجوز وتوكأت على ظلال حياتها وبادرت أراخني قائلة: اسمعي نصيحتي، واحرصي على ما شئت أن يقال عنك إنك أكثر البشر مهارة في غزل الصوف، ولكن لا تقارني نفسك في هذا الصدد بالآلهة، فحدقت أراخني في المرأة العجوز بنظرة غاضبة قائلة: لا تخالي أن تحذيراتك سوف يكون لها أثر في نفسي. لماذا لا تأتيني مينرفا، ولماذا تتهرب من مباراتي؟ وحينئذ صاحت الآلهة: ها هي ذي الآلهة أتت. وخلعت عن نفسها صورة المرأة العجوز فتباريا في النسج، ونسجت أراخني صوراً تمثل نزوات الآلهة الآثمة، ولم تستطع مينرفا اكتشاف أي عيب في اللوحة، فتملّكها الغضب لنجاح منافستها، ومزقت اللوحة ثم أمسكت بجذع شجرة وهوت بها على رأس أراخني، التي لم تحتمل تلك الإهانة فلفت حول عنقها حبلاً شنقت به نفسها، ولما رأتها مينرفا على تلك الهيئة أشفقت عليها وقالت لها: «لِتَبْقَيِ حية، ولكن معلقة في الهواء إلى الأبد». ثم أخذت في الابتعاد بعد أن نثرت على أراخني عصارة عشب مقدس. وما كادت عصارة هذا العشب السام تلامسها حتى تساقط شعرها وضمر أنفها وأذناها ورأسها وبقية أطرافها، وبرزت لها أصابع دقيقة في جبينها بدلاً من ساقيها، ولم يبق منها إلا بطنها ينساب منه الخيط، وها هي تواصل نسيجها كما كانت تفعل من قبل

---

(١) مينرفا الهة الحكمة في الميثولوجيا الإغريقية ويُقال إنها ولدت بأن انبثقت كاملة من رأس زيوس.

وإذ هي تصبح عنكبوتًا[1].

هل ما فعلته الآلهة بحق أراخني خير أم شر؟ وهل الفعل الجميل جميل لأنه محبوب من الآلهة، أم هو محبوب منها لأنه جميل؟ وهل ما فعلته مينرفا نابع من أحاسيسها، أم هو تصرف مصدره العقل؟ وما الذي طغى على الآخر في هذا التصرف: العقل أم الوجدان؟ ولأيّهما نلجأ عندما تختلط علينا الأمور، إلى العقل أم الإحساس؟ فإذا تنازعنا حول الأثقل والأخف لجأنا إلى الميزان، وإذا تنازعنا حول الطويل والقصير لجأنا إلى المتر للقياس، وإذا تنازعنا حول الفعل، هل هو خير أم شرّ، جميل أم قبيح فلمن نلجأ؟

يتحول الإنسان إلى حيوان عندما تتحكم عواطفه بعقله، ويصبح صارمًا إذا طغى عقله على عواطفه، فيصير جسداً بلا قلب. وإذا أحب الإنسان بجنون فسيفقد ذلك التوازن، مما قد يعرضه إلى سقطات سيِّئة في المفهوم الاجتماعي العام، ولكنها بريئة في عفويتها وحميميتها. إنها العودة إلى الطبيعة، إلى الحيوان الجميل داخل كل منا.

وقديمًا سأل «اسبينوزا»: هل نرغب في الأشياء لأنها خير في ذاتها، أم أننا نقتصر على تمجيد رغباتنا وتبريرها إذ نسمي موضوعها «خيراً»؟ فالخير والجمال موجودان، وعلينا أن ننظر بإمعان إلى كل من نقابلهم وإلى كل تصرفاتنا، فكثير منها جميل، وخاصة الفنون المختلفة، ومنها الإغريقي على سبيل المثال بأشكاله كافّة من مسرحيات «يوريبيديس» و«سوفوكوليس» و«ارستوفانيس» وملاحم «هوميروس»، التي لازالت تمنحنا متعة فنية، وتعتبر نموذجًا يصعب بلوغه في الأعمال الحديثة، ولا زالت تلعب دوراً في البناء الفكري والروحي للأجيال الحالية، ويصعب

(١) مسخ الكائنات/ أوفيد، ترجمة د. ثروت عكاشة.

ربطها بالتصور الاجتماعي في عصرنا الحالي. ولكنها في حقيقة الأمر وعي الأديب أو الفنان بالعالم الخارجي كانعكاس للواقع الموجود في تفكير وتصورات وأحاسيس الإنسان في ذلك العصر.

إن وظيفة الفن هي المحافظة على صدق وحقيقة الانعكاس عن الواقع، سواء أكان انعكاسًا للطبيعة أو للمشاعر والوجدان، أم انعكاسًا للفكر من خلال الصياغة الفنية، وليس المقصود بالانعكاس هنا «النسخ الفوتوغرافي» وإنما ذلك الذي يحتوي على الروح والوجدان، والإخلاص في استيعاب الواقع الموضوعي، والإخلاص الجارف لإعادة صياغته في مضمون جديد من خلال الأشكال الأدبية المتعددة، مضفيًا الجمال البريء القادر على تطهير النفس البشرية من الدنس اللصيق بها منذ ألم الولادة. والواقع مليء بالحقائق التي يدخلها الفنان في ذهنه فيحوّلها من المحدود إلى اللاّنهائي، ويُعيد إخراجها بصورٍ شتى مضفيًا إليها من روحه وإحساسه، جاعلاً الاعتقاد بديلاً للحقيقة... وذلك هو الإبداع. لقد كان أفلاطون يعتبر الفن محاكاة للجمال، ويرجع المتعة الجمالية إلى الانسجام بين شكل العمل الفني وجمال الفكرة، فالمضمون الجمالي للعمل الفني يكمن في جمال التعبير وقوة التأثير.

وما الجميل والقبيح والمضحك والمأساوي إلاّ انعكاس لعلاقات الناس مع بعضهم بعضٍ، ولتفاعلاتهم الاجتماعية ولعلاقتهم مع الطبيعة. فعندما نستمتع بمشاهدة مكان جميل خلال تجوالنا، يصبح المكان أكثر جمالاً إذا كانت محبوبتك بجوارك، ويزداد إبهاراً إذا كان الموضوع ـ محل الحديث ـ شيقًا.

وإذا قفزنا إلى قلب الدوامة وتسلحنا بالمنطق وسألنا أنفسنا: ما هو

الجمال، وهل هو ذاتي أو موضوعي، أو أنه غير موجود إلا في أذهاننا؛ لا توجد إجابة عن التساؤلات الكبرى، ولكن المحاولات تقودنا إلى تلمُّس الجمال من خلال عدة مستويات، فنشعر به من خلال القيَم الحسية التي تتولد لدينا لدى رؤية الألوان الجميلة ـ كالأحمر والأسود ـ ولدى سماعنا لأصوات البلابل ومشاهدتنا للرخام المصقول والمنحوت وكل ما يجذب إليه البصر واللمس.

ونشعر بالجمال أيضًا من خلال القيم الشكلية لدى مشاهدتنا لواجهة مبنى جميل والخطوط والتموجات البديعة التي تخلفها الرياح في رمال الصحراء. ونشعر بالجمال من خلال القيم الارتباطية، وهي بلا شك أجمل القيم وأسماها. فلدى سماعنا لمقطوعة موسيقية معينة سنُطرب لها أشد الإطراب إذا كانت مرتبطة في ذهننا بمناسبة سعيدة في الماضي. ...«لا زال الرداء ذو اللون البنفسجي يغمرني بالفرح بمجرد رؤيته، لأنه يستدعي أحداثًا جميلة، متجاوزاً المغالطات الوجدانية. فذلك الرداء حوَّل السماء الغاضبة إلى أخرى وادعة، والبحر الهائج إلى آخر متدفق رقة وحنانًا، وبدا النسيم يداعب خصلات شعرها وغرقت في قوس قزح»...

البشر ميالون إلى الكذب، ونحن نتألم إذا كنا صادقين، فمن منا أعلن عن حقيقة علاقاته الاجتماعية التي يصفها المجتمع بعدم الشرعية؟ ومن منا لم يخن زوجه ولو بالتفكير؟ ومن منا لم يشعر بالظلمة والسواد في داخله؟ ومن منا أعرب عن حقيقة مشاعره تجاه الآخرين؟ يأتي القبح من الداخل إلى الخارج، من الصدق إلى الكذب، من الجمال إلى نقيضه، فنغرق أنفسنا في أشكال الفنون المختلفة لنتطهر من جهة ولنستمد القوة ونحيا بالكذب الصادق من جهة أخرى!

... «كم هو رائع وجميل هذا الوجه»، تلك العبارة التي يتفوَّه بها أي إنسان عندما يرى ما يدهشه، نجد نقيضها لذات الوجه من أناس آخرين. فالجمال نسبي، وما هو حسن لديك قد يكون سيئًا لدى غيرك، فما تراه أمامك جميلاً يستمد جماله مما هو أبعد من الشكل، من المضمون والجوهر. فالأخلاق والمعرفة تظهر في الحقيقة الجمالية (الشكل)، والأخلاق هنا هي النظم الأخلاقية التي تحكم سلوك كلٍّ منا بغضّ النظر عن اتساقها مع القيم الغيبية أم لا.

وتنسحب النسبية أيضًا على الانفعالات، فهي متغيرة من شخص إلى آخر ومن لحظة إلى أخرى لدى الشخص الواحد، وتكون أكثر وضوحًا لدى الإناث نتيجة للتغيرات الهرمونية التي تتم في الجسم الأنثوي. ويترتب على ذلك أن التقويمات الأخلاقية بدورها متغيرة وشخصية، فما يبعث الفرح في شخص معين قد يثير شجون شخص آخر، وما يراه الأول أخلاقيًا قد لا يشاطره الآخر الرأي ذاته.

إن الرؤية الواقعية للأشياء تجعلنا لا نرى الجمال. فالجميل في الواقع يظهر جميلاً بسبب تدخل خيالنا وعواطفنا التي توسِّع أبعاد الشيء وترفعه إلى المدى الرحب، والجميل هو ما نراه ونفهمه ونحسه ونرغبه، وهو الذي يبعث فينا الفرح ويبعد عنا الحزن. والجنة هي الجميل المعشوق الذي يتحول إلى نار وقبيح عندما يبعث فينا الحزن والأسى، فمن يمنح أدخَلنا الجنة؛ ومن يمنع أدخَلنا النار، وضللنا الطريق ما بين الجنة والنار.

ويتحسس الإنسان الجمال من خلال حواسه ـ خاصة في مجال الرؤيا والسمع ـ ولا يمكن إدراك محتوى الشيء الجميل وجوهره بالبصر أو السمع، وإنما بالتفكير الإنساني القادر على النفاذ إلى قلب المعرفة.

فحبيبتك جميلة لأنك نفذت إلى داخلها بفكرك وقلبك وعرفت مكنوناتها وقيمها الداخلية التي لا يراها غيرك من خلال شكلها الخارجي، والتي قد تبدو على غير تلك الدرجة من الجمال لدى الآخرين.

ولا يستقيم الحديث عن الجمال دون التطرق إلى الألوان، فمن يحس باللون يشعر بالجمال، والخاصية الجمالية للون متعلقة بالمضمون الذي يعكسه الشكل، فلا نستطيع أن نحس بجمال اللون إلا بعد أن نحس بمضمونه وأهميته. ويزداد الشعور بالجمال في اللحظات الحميمية التي تتداخل فيها الألوان حيث لا يمكن التمييز ما بين الأسود والأبيض وما بين الواقع والخيال. فمن يمتلك العقل الخالص يستحيل عليه تعريف اللون الأحمر، ومن يمتلك الخيال الخصب يستطيع وصف ذلك اللون على صعوبته.

يلعب الفن دوراً رئيسا في تنمية ذوق الإنسان، فيُطوِّر إحساسه ويجعله أكثر قدرة على تحديد الجميل والقبيح، والخير والشر، وينعكس ذلك على محيطه المادي فيُبدع في اختيار ملابسه وأثاث منزله، وترتقي تصرفاته إلى المستوى الحضاري. كما يساهم الفن في صقل مشاعر الإنسان، فنحن نتعاطف مع أحداث العمل الفني المرئي أو المسموع ونعيش أحاسيس الأبطال، ونتألم للمصير الذي يؤولون إليه ونحمد الله فنحن أفضل من البطل الذي تصرعه الآلهة في المآسي، ونشعر بتطهر أنفسنا من التشاؤم ويكبر فينا الأمل. ولدى سماعنا للموسيقا ينبعث داخلنا التفاؤل بالحياة ونتطهر بالأسى والحزن والعذاب والألم. وقد حدد أرسطو وظيفة اجتماعية مهمة للفن، فهو في رأيه يخدم في النهاية الراحة والتسلية، ويُطهِّر انفعالات معينة ويقدم التعاليم الأخلاقية.

ومما لا شك فيه أن عصر الإنسان المتحضّر لم يبدأ بعد، وأن الصراعات في أي مجتمع تتراجع بارتقاء مرتبة الفنون فيه. فبالنظر إلى تفاصيل خريطة العالم نجد أشلاء الجثث تملأ المكان، وكذلك صراعات البشر والحروب، ولا زالت رائحة العفن تنبعث من الموتى فيما الإنسان ملطخ بوحل الخطايا والدماء تلوث يديه. ولا نستطيع أن نكتم دهشتنا لدى رؤيتنا لمشاهد الحروب العبثية التي تجتاح كوكبنا وتجعل الإنسان بلا مأوى، من أجل حفنة دولارات، أو من أجل نفوذ زائل لا محالة. فلقد هُدمت «سدوم» لعدم تمسك أهلها بالأخلاق، وما لم تُحل مشكلة البشرية، بإحلال العدالة الاجتماعية وتقليل الهوة ما بين الأغنياء والفقراء ومنع ترسيخ الحدود القائمة بين الحضارات كفروق بين الرفاهية والمعاناة والتقدم والتخلف، سنجد المجتمع البشري في طريقه إلى الانحلال والانفلات من القيم الأخلاقية والنظم الاجتماعية كافة التي تربطه. وما لم نمتلك رؤية نظرية لإعادة صياغة العالم من جديد واضعين نصب أعيننا العدالة الاجتماعية والحرية كأهداف ينبغي الوصول إليها، فسنصطدم بالجدار، والأولى في هذه الحالة أن يقضي الإنسان حياته في مراقبة النجوم.

الزمن الضائع

عندما سأل الرب آدم: «هل أكلتَ من الشجرة التي أوصيتك أن لا تأكل منها. فقال آدم: المرأة التي جعلتها معي هي أعطتني من الشجرة فأكلت. فقال الرب الإله للمرأة ما هذا الذي فعلت؟ فقالت المرأة: الحية غرَّتني فأكلت... وقال للمرأة: - «بالوجع تلدين أولاداً، وإلى رجلك يكون اشتياقك وهو يسود عليك»...

... «وقال الرب الإله هو ذا الإنسان قد صار كواحد منا عارفًا الخير والشر. والآن لعله يمدُّ يده ويأخذ من شجرة الحيوة أيضا ويأكل ويحيا إلى الأبد. فأخرجه الرب الإله من جنة عدن ليعمل الأرض التي أخذ منها»*

لا أحد يعلم متى تم ذلك، ولا يستطع أحدنا الادعاء بأن فكرة الخلود لم تخطر له على بال، ولكن كيف يكون الخلود للإنسان وهناك الزمن، نقيض إلى الأبد، الذي يتربص بنا ويحصدنا. أيكون الخلود بيولوجيًا بالاستمرار من خلال الأبناء؟ أيكون الخلود اجتماعياً بالاستمرار بالأعمال الصالحة في المجتمعات؟ ولكن من منا يذكر مكتشف النار أو المعلّم الأول للحروف والكلمات؟!..

وإذا انتقلنا إلى سراديب الميثولوجيا اليونانية، فالكون بدأ بالفضاء والفوضى، ثم انطلقت الأرض منبثقة من الفضاء، وولدت الأرض، النهار، ثم الليل والسماء والبحر، ثم جاء بعد ذلك العمالقة وهي مخلوقات ضخمة بشعة ذات عين واحدة في منتصف الجبهة، ولقد جسدت كل ما هو ضخم وقوي على الأرض، مثل الجبال والزلازل وثورات

(*) «سفر التكوين»، الإصحاح الثالث. انظر «الكتاب المقدس» ص ٦. ٧.

البراكين، وكان أصغرها «كرونوس»، إله الزمن، الذي استطاع إخضاع العالم كله لسلطانه، وكان إلهًا شديد القسوة مجرداً من الرحمة لم يتورع عن افتراس أولاده، ولا يزال يحطم كل شيء في الوجود، لقد صوروه حاملاً منجلاً بشعًا لجني حصاد أي شيء، وكل شيء ولا مهرب لأحد من منجله ولا نجاة لنا منه.

وإذا عدنا بخيالنا إلى أجدادنا الأوائل قبل عشرة آلاف عام، لوجدنا أنفسنا محاصرين بالحيوانات المتوحشة، منكمشين على أنفسنا، بالكاد تنتصب قاماتنا، نحيا في كهوف وسط غابات كثيفة نكاد لا نرى الشمس، وأدواتنا من الحجر وأيادينا متمايزة وأصابعنا قادرة على السيطرة على الأشياء، ولم نكن نحس بالزمن فكل الأيام متشابهة، والعالم تنتهي حدوده عند البحر والجبل، ودورة الحياة في صيرورة مستمرة لا متناهية تكاد لا تتوقف عن الدوران، فكل ما هو حي جدير بالموت، والحياة مآلها إلى الهلاك.

وإذا أدرنا سفينة الزمن إلى الوراء 30 - 40 ألف عام، كان جدنا «الكرومانيوني»، صاحب الجمجمة الكبيرة والوجه العريض، الواقف مندهشًا دومًا حول ما يدور من حوله، يرعبه صوت الرعد وتخيفه الخفافيش، ولا يدري ماذا يفعل أمام الرعد والبرق والأمطار الغزيرة، ولم يكن أمامه سوى الهروب إلى أقرب كهف.

وإذا سبحنا في اتجاه الماضي إلى 50-70 ألف عام كان جدنا «النياندرتالي»، الذي كان دائما يحاول الوقوف منتصبًا لرؤية الحقيقة وكثيراً ما كان يفشل في مواجهتها، وكانت جبهته منحنية إلى الخلف، وحجم عقله أصغر من الإنسان الحالي، فلم يكن يمتلك حينذاك الوعي

وكان يحيا في قلق وشك فلم يكن يعلم لماذا يحيا الإنسان؟

ولا نستطيع المضي قدمًا دون أن نحيك تاريخ أمّنا الأرض التي بدأت وتشكلت في فجر الحياة منذ «5» مليارات سنة، وفي ذلك العصر ظهرت القارات والمحيطات، وبدأت الكائنات الحية المعقدة في الظهور قبل 700 مليون عام تقريبًا.

ـ وأعقب ذلك عصر الحياة القديمة منذ 600 مليون سنة، وكانت أشكال الحياة قليلة وفي المحيطات فقط، فظهرت الأسماك وغزت بعض النباتات، وبرفقتها بعض الحيوانات، اليابسة وازداد الزحف على اليابسة فانتهى ذلك العصر والأرض مليئة بالغابات الكثيفة.

وجاء الصيف الأبدي، وهو عصر الحياة المتوسطة الذي دام تقريبًا 135 مليون سنة، وكان الطقس دافئًا ومنتظمًا على الدوام، والزواحف تسيطر على الأرض بمائها ويابسها، وكان وزنها يعادل خمسة أضعاف الفيل الحالي، ولقد وجدت بقايا «للبرونتوصور» طولها 20 متراً ووزنها 30 طنًا وتحولّ الصيف الأبدي إلى نقيضه. فغطى الجليد الأرض وتحولت السماء إلى اللون الأبيض فماتت كل المخلوقات الضخمة.

وها نحن نعيش الآن عصر الحياة الجديدة، وهو مستمر منذ 55 مليون سنة. ويبرز هنا السؤال: هل كانت الحياة والمخلوقات على الأرض تدرك الزمن؟ فملايين السنوات التي تحدثنا عنها من عمر الأرض، وآلاف السنوات التي تحدثنا فيها عن الإنسان، كان الوعي ينحصر في وعي المكان، ولم تعِ الكائنات الحية الزمن فكان التاريخ تاريخ المكان والتطور تطور المكان، إلى أن انفصل الذهن عن العقل البشري ووجد الوعي، فربط الإنسان ما بين العلاقات الخارجية والأحداث والظواهر، وأوجد

قوانين نظرية خارجية تحلل تلك العلاقة، فكان لا بد من إدراك الزمن. وفي البدء ربطت المجتمعات البدائية الزمن بأحداث جسام، كأن يقال بأن فلانًا وُلد يوم غرقت جزيرة كذا، أو فلانًا مات بعد اصطياد السمكة العود «الكبيرة»، بحوالي كذا، فلم يكن الإنسان يدرك للزمن معنى. ومنذ وجد الزمن زادت تعقيدات الحياة وأصبحت تصرفات البشر أسيرة إطار الزمن الذي اخترعناه، ويظل الزمن الحقيقي هو في داخل كلا منا. فعندما يعانق أحدنا حبيبته يشعر بأن الزمن تجمد، وتمر الدقائق والساعات في ثوان، وعندما يضع الحظ العاثر أحدنا مع شخص لا ننسجم معه، نشعر وكأن الدقائق التي قضيناها معه كالساعات الطوال. وصاحب القضية التي يعذب من أجلها بنقطة ماء منتظمة تسقط على رأسه، يشعر وكأن نقطة الماء صخرة كبيرة، وأن الزمن ثقيل كسيف مزدوج ـ يمزق الكبد. فعندما أرادت الآلهة تعذيب «بروميثيوس»[1] لإعطائه النار للبشر، وهي من الأسرار الآلهية، صلبته على الجبل وجعلت الصقر ينهش كبده طوال النهار، لينمو ثانية في الليل ويعاد نهشه في النهار. فهل زمن نهش الكبد كزمن الفتى الذي يمرح في البساتين؟ ... لا تسأل نفسك كم عشت من السنوات، فربما تصاب بخيبة الأمل بأن ثلث عمرك قضيته في النوم، ولا تخجل إذا واجهت نفسك بالحقيقة، وأنت على مقهى الصراحة فإنَّ العمر الحقيقي لا يتجاوز بضعة أيام، وبقية الحياة هي الزمن الضائع المفقود الذي ينساب ما بين أصابعك ولا تستطيع الاستحواذ عليه. سحب من الضباب تمر كالحلم وتفلت دون أن تمسك بها، حورية بحر تثير الأحاسيس وتلهب المشاعر، وما أن تحاول الاقتراب منها لتقبيلها، تبتسم لك ساخرة وتهرب مع القمر.

ولو استطعنا الخروج من نفق أفكارنا الضيق، وحلّقنا إلى أعلى،

---

(١) إله الثقافة في الميثولوجيا الإغريقية.

ونظرنا من خارج الكون، فسنجد أن العمر الأكثر احتمالاً لهذا الكون يبلغ حوالي 15 مليار سنة، وأن عمر الأرض حوالي خمسة مليارات سنة، وأن خمسين مليون سنة مرَّت على تشقق القارات وتباعدها حيث تكوَّن الوجه الحديث للكرة الأرضية وماتت الزواحف وأصبحت الحيوانات ذات الدم الحار هي سيدة الأرض، وذلك بعد أن مرت الأرض بملايين السنوات من الصيف الحار، وقبلها ملايين السنوات من الفترات الجليدية، وأنَّهُ منذ حوالي مائة ألف سنة ظهر عصر الحضارة الإنسانية القديمة، عندما استطاع الإنسان أن يستخدم الأدوات الخشبية بشكل بدائي، وأن العصر النحاسي بدأ منذ حوالي ستة آلاف سنة فيما بدأ العصر الحديدي منذ ثلاثة آلاف سنة. وإذا قسنا تلك الأزمنة إلى عمر الكون المفترض فسنجد أن الإنسان صنع أدواته الخشبية منذ نحو ثلاث ساعات، وبدأ عصره النحاسي منذ نحو 12 دقيقة، والآخر منذ ست دقائق، وأنَّ السيد المسيح جاء منذ حوالي أربع دقائق، فيما بشَّر النبي محمد (صلعم) بالرسالة منذ نحو ثلاث دقائق، وأنَّ الحضارة الإنسانية بدأت منذ بضع ثوانٍ بخطوات سريعة، فأقام الإنسان علومًا حديثة وقطع أشواطًا متقدِّمة في الصناعة والتكنولوجيا.

ولنكمل استراحتنا خارج الكون ولننظر إلى الإنسان، فسنرى حياته بالكامل منذ ميلاده وحتى مماته، عبارة عن جزء من الثانية بالنسبة لعمر الكون، ولو افترضنا وجود كائنات ذكية تحيا بمقاييس مختلفة، فستنظر إلينا كنظرتنا إلى الحشرة التي تولد وتموت في الليل ولا يتسنى لها رؤية النهار، أو الأخرى التي تولد وتموت في النهار ولا تتسنَّى لها رؤية الليل. فكم هي تعيسة تلك الحشرة التي لم تشاهد جمال الصبح، وكم شقية تلك التي لم ترَ روعة الليل. ولا ندري ماذا نقول بالنسبة للإنسان

الذي يولد ويموت في لحظة كونية ولا يرى نهار الكون أو ليله.

ومنذ بداية العصر الحديث كان يُنظر إلى الزمن وكأنه نهر ينساب بمعدل ثابت لجميع الأشخاص والأشياء، إلى أن جاء «أينشتاين»، وأثبت، من خلال نظرية النسبية الخاصة، أن الزمن لا ينساب بالمُعدلِ نفسه بالنسبة لراصدين مختلفين يرصدانه من نقطتين مختلفتين، ولا يتحركان بالنسبة لبعضهما بأية سرعة نسبية. ولقد ضرب المثل الشهير بأنه إذا حدث انفجار في مجموعة «الجبار» في ليلة 17 مارس (آذار) العام 2000، نتيجة لانفجار «الجوزاء»، فلن يرى سكان الأرض هذا الانفجار في هذا التاريخ نفسه، لأن الجوزاء على بعد 300 سنة ضوئية من الأرض، أي أن الموجات الضوئية الدالة على حدوث الانفجار ستصلنا في 17 مارس (آذار) العام 2300 م. وإذا كان هناك أحد على «الديوان» فسيرى الانفجار نفسه في 17 مارس (آذار) العام2250م، حيث إنه يبعد 250 سنة ضوئية عن الجوزاء، أي إن الحادثة الواحدة تحدث في كل هذه الأماكن في وقت يختلف من مكان إلى آخر وفقًا للمسافات ما بين الأماكن.

ولقد أدت نظرية أينشتاين في النسبية الخاصة إلى حقيقة أنه إذا تحرك راصدان بسرعة منتظمة أحدهما بالنسبة للآخر، فإنَّ الزمن في مجموعة كل منهما يظهر للآخر كما لو كان يسير ببطء. هذه الحقيقة أدَّت إلى ظهور «تناقض الزمن». ومرة ثانية سنستعير من أينشتاين مثله الجميل، ولنفترض أننا ذهبنا سويًا في رحلة فضائية إلى نجم «السماك الرامح»، الذي يقع على بعد 33 سنة ضوئية من الأرض. فإذا سارت السفينة بسرعة قريبة من سرعة الضوء فإنها تصل إلى ذلك النجم في

مدة تزيد قليلاً على 33 سنة، وإذا عادت مباشرة فإنها تعود إلى الأرض ثانية بعد 66 سنة من مغادرتها لها.

ولما كانت السفينة الفضائية قد سارت بسرعة كبيرة بالنسبة لمقاييس الأرض، فإننا لن نشعر بأننا استغرقنا 33 سنة في رحلة الذهاب، وعندما نعود إلى الأرض فإنه سوف يبدو أننا لم نتركها سوى يوم واحد، في حين أنه سيكون قد مضى علينا 66 سنة بالنسبة لسكان الأرض، وقد لا نجد أحداً من أصدقائنا على قيد الحياة، فعمر كل من تركناهم قبل رحلتنا الفضائية سيكبر بمقدار 66 سنة. فلا منفعة من إغراق النفس في الفضاء للاحتفاظ بالشباب، ذلك أن الموت على صدر المحبوب وفي حضن المعشوق أجمل من الحياة في غياهب الفضاء، والدنيا مليئة بالأسرار والعذابات لن تؤدي إلى فك الألغاز، ولنستمتع بزمننا قبل أن يهرب منا، ولنعش الزمن والشخص الذي نريده لا الذي يريده الآخرون.

عالم بلا جريمة

بعد أن خلق «زيوس»[1] الإنسان أراد أن يخلق أنثى جميلة للإله «بروميثيوس»[2] فأوجدها من الطينة البشرية، وجاءت آية في الجمال والحسن، وأقبلت الآلهة فوهبتها فينوس من جمالها، ومينرفا من حكمتها، وديانا من رشاقتها، كما وهبها «كيوبيد»[3] من حبه، وأبوللو من شعره، ثم نفخ فيها «زيوس» من روحه فدبت فيها الحياة، وسماها ربها «بندورا»، وحملها «هرمز»[4] هدية إلى بروميثيوس الذي رفضها، فتلقاها أخوه «ابيمثيوس». وعاشت بندورا كما تعيش الآلهة في لهو ومرح. وفي أحد الأيام، وبينما كان الزوجان يتناجيان، أقبل هرمز بصندوق هدية من زيوس إلى بندورا واشترط عليها ألا تفتح الصندوق إلا بعد إذنه، ،مرت أيام وأيام ولم يأت الإذن الإلهي بفتح الصندوق، فنهضت إلى الصندوق مأخوذة بجماله وأسراره وفتحته، فانطلقت الأرواح الشريرة ، خفاشًا يحمل المرض، وآخر الفقر، وثالثًا الجوع، ورابعًا البخل وخامسًا النفاق، وسادسًا القحط، وسابعًا النفاق، وثامنًا الدناءة.. إلى آخر الرذائل التي لا زالت موجودة بيننا حتى اليوم. وهكذا عرف الإنسان طريقه إلى الجريمة[5].

وعندما أعادت بندورا غلق الصندوق بسرعة، سمعت صوتاً من داخله يقول: افتحي لي حتى أشفي جراحكم. ففتحته لتخرج روح «الأمل» التي لولاها لما بقي أحد منا في الحياة، فلا حياة بلا أمل!

---

(١) زيوس زعيم الآلهة في الميثولوجيا الإغريقية.

(٢) بروميثيوس إله الثقافة في الميثولوجيا الإغريقية وهو الذي سرق النار من الآلهة وأعطاها البشر.

(٣) كيوبيد ابن آلهة الجمال فينوس في الميثولوجيا الإغريقية ويصوّر حاملاً القوس والسهام.

(٤) هرمز رسول الآلهة في الميثولوجيا الإغريقية.

(٥) اساطير الحب والجمال عند اليونان - دريني خشبه

ومنذ انطلاق الرذائل يحيا الإنسان ومعه الجرائم، ومنذ أن وعى تاريخه وهو يحاول إعادة الأرواح الشريرة إلى الصندوق للإقلال من الجرائم وتوفير الحياة السعيدة. وتؤثّر تلك الأرواح الشريرة في سلوكياتنا وبقدر سيطرتنا على المناخ الذي تحيا به الرذائل يمكن النجاح في التقليل من الجرائم. ويستجيب الإنسان للموقف بأنماط سلوكية مختلفة تبعاً لتربيته وبيئته، ذلك أن لكل مجتمع معاييره الاجتماعية المختلفة التي يصوغها الناس خلال مسيرة حياتهم. فإذا انحرف أحد أعضاء المجتمع عن تلك المعايير الاجتماعية فإننا نكون بصدد سلوك غير اجتماعي، وقد يكون ذلك الانحراف إلى الحد الذي يضع مرتكبه تحت طائلة القانون، أي أن يكوّن ذلك السلوك غير الاجتماعي أركان جريمة ما..

ومنذ البدء، تعمل البشرية على القضاء على الجريمة أو الحد منها، ولقد استخدمت في ذلك أساليب عديدة ضمن مفهوم العقاب، فأغرقت بعض المجرمين وأحرقت بعضهم أحياء وصلبتهم أو خنقتهم أو قطعت أوصالهم، وأهانت الجسد البشري إلى حد اختراقه بالخازوق، وعلى الرغم من ذلك، لازالت ظاهرة الجريمة تندفع لكسب مواقع جديدة.

.. ولعل من أسباب الفشل في مكافحة الجريمة تلك النظرة ضيقة الأفق التي تعتبر الجريمة مشكلة من مشاكل القطاع الجنائي وحده، وتعوّل عليه أن يجد حلولاً لهذه المشكلة. إلا أن التقليل من معدلات الجريمة يعتمد بشكل أساسي على توفير الحلول للمشاكل الاجتماعية والاقتصادية والثقافية التي تؤثر في غالبية السكان، ومكافحة الجريمة لا تبدأ بالفرد بقدر ما تبدأ بالمجتمع.

يرتكز التصور الواقعي للتخطيط لمنع الجريمة ـ بالضرورة ـ على التعرف

على واقع الجريمة من خلال البيانات والإحصاءات، حيث يمكن استخدام تلك البيانات في تحديد اتجاهات الجريمة.. والعمل على دراسة العلاقة بين العمليات الإنمائية، كالتحضر والتصنيع ونمو السكان والهجرة وغيرها من الاتجاهات الديموغرافية، بالزيادات المحتملة في معدلات الإجرام، من أجل ضبط هذه الظاهرة والتحكم في مساراتها والإقلال من معدلاتها.

ويتمثّل النهج الأفضل لمنع الجريمة في اتباع التخطيط البيئي، حيث يفترض هذا النهج وجود مجموعة معينة من الظروف تؤدي إلى احتمال زيادة ارتكاب أنواع معينة من الجريمة، لذا فإن إحداث تغيير في الظروف أي «البيئة» من شأنه أن يؤدي إلى تخفيض في حالات وقوع تلك الأنواع من الجرائم.. فالإنسان وليد بيئته تربطه بها علاقة التأثر والتأثير المتبادل، وبالتالي فإن إزالة الظروف المعيشية التي تحط من كرامة الإنسان، مثل الفقر والأمية والتمييز العنصري واللامساواة بمختلف أشكالها ومستوياتها، ستؤدي حتمًا إلى الإقلال من معدلات الجريمة من جانب، واحتواء السلوك الإجرامي داخل حدود مقبولة، من جانب آخر..

.. ولضمان نجاح التخطيط لمنع الجريمة، يجب ربطه بالخطط الإنمائية الشاملة، فوضع برامج لتعليم المجرمين مهارات تقنية مطلوبة في سوق العمل، سيقلل من احتمالات عودة هؤلاء المجرمين إلى الجريمة مرة أخرى، وفي الوقت ذاته فإنَّ اكتسابهم لتلك المهارات يساهم في تحقيق برامج التنمية على المستوى الوطني. وينبغي علاج التفاوت بين أنماط التغير الاقتصادي السريع، وثبات القوانين أو تغيُّرها البطيء بما لا يتناسب مع

التطورات والمفاهيم الاجتماعية الصاعدة بفعل التنمية. ويمكن أن يكون هذا التفاوت مصدراً لمشاكل كثيرة، ومن أجل الحد من هذا التفاوت والتقليل من التخلف الاجتماعي، فإنّه يتعين تحسين النظام القانوني وتقويمه وتعديله بصفة مستمرة بحيث يواكب الاحتياجات الاقتصادية والاجتماعية المتغيرة..

ومن العوامل المساعدة للجريمة: الهجرة. فالطيور تهاجر تاركة أوطانها هربًا من قسوة البرد إلى الدفء، ويهاجر الفلاح المعدم من قريته إلى المدينة بحثًا عن الرزق، ويترك ابن المدينة مدينته إلى عواصم أخرى من العالم أملاً في تحسين ظروف معيشته، ويحمل المهاجر والنورس أفكار ومعتقدات البيئة المحلية التي نشأ فيها، وغالبًا ما تختلف تلك الأفكار والمفاهيم مع ما هو سائد في البلد المستقبل، وينشأ نتيجة لذلك صراع بين الثقافات تنعكس آثاره على جيل الآباء وتكون أكثر وضوحًا عند الصغار، فاختلاف المفاهيم وتناقضها يؤدي إلى اختلال في القيم وعدم ثقة فيها، مما قد يدفع بالأحداث إلى دائرة الجنوح..

ويؤدي الاتجاه السائد نحو تحوُّل المدن الكبرى والعواصم إلى مدن متضخمة، إلى زيادة معدلات الهجرة إليها، فيظهر نتيجة لذلك قصور في قطاعات عديدة كالصحة والتعليم والإسكان، وغالبًا ما يفشل المهاجرون في الحصول على مصادر رزق شريفة، فيلجؤون إلى الطرق غير الشرعية لسد احتياجاتهم. ومما لا شك فيه أن العمل على منع الجريمة في ظل حركات الهجرة الإقليمية والوطنية والدولية، يتطلب أن تكون حركات الهجرة مخططًا لها، وأن تُنفذ في إطار التنمية الوطنية الشاملة، مثل إقامة مدن صناعية خاصة أو إنشاء مناطق زراعية حديثة، بغية

زيادة الموارد الوطنية وتنظيم الهجرة. واستيعاب المهاجرين ضمن خطط التنمية، من شأنه أن يؤدي إلى رفع مستوى الحياة لدى المهاجرين وإلى تخفيض معدلات الجريمة..

كما أن الأمية تلعب دوراً في ارتفاع نسبة الجريمة، وقد دلّت الدراسات على أن نسبة المجرمين بين الأميين تبلغ أكثر من ثلاثة أمثالها بين الذين تلقوا دراسة ثانوية أو أعلى منها، أي إنّه كلما ارتفع مستوى التعليم في أحد القطاعات، انخفضت نسبة الجريمة في ذلك القطاع. ولا يمكن اعتبار هبوط المستوى التعليمي في حد ذاته، دافعًا وحيداً لارتكاب الجريمة، إلاّ أن إحساس الإنسان بانعدام الأمن، إضافة إلى انخفاض الدخل الفردي ومحدودية الفرص المتاحة للعمل، قد يدفع باتجاه معارضة المجتمع والتمرد عليه.. ولمنع الجريمة، فإنّه من الأهمية بمكان، أن توضع الخطط والبرامج الحقيقية والجادة من أجل محو الأمية والعمل على إدخال تعديلات على مناهج ونظام التعليم العام في الدول النامية بحيث تساير التقدم العلمي والتكنولوجي الذي وصلت إليه دول العالم المتقدم، وأن توضع برامج التعليم وفقًا لمقتضيات الواقع وفي إطار التنمية الوطنية والاحتياجات الفعلية للدولة، فالتباين بين اتجاه النظام التعليمي وبين فرص العمل المتاحة قد يؤدي إلى السعي لانتهاز الفرص غير المشروعة والوقوع في براثن الجريمة..

إنّ التعرض للعلاقة ما بين وسائل الاتصال بالجماهير، كالكتب والصحف والمجلات والأجهزة الإذاعية المسموعة والمرئية والأسطوانات وأشرطة التسجيل الصوتية وأشرطة الفيديو والأفلام... وآثار هذه الوسائل على عقلية المشاهد ونمط تفكيره، مسألة شائكة وشديدة

التعقيد. نحن جميعًا نتأثر بأجهزة الإعلام وما تبثه من معلومات، إلا أنه من الصعوبة أن ندرك حجم هذا الأثر على سلوكياتنا، وبات من المؤكد أنَّ وسائل الإعلام تلعب دوراً خطيراً في تكوين مفاهيمنا وتغيرها.

وعلى الأجهزة الإعلامية الواعية إجراء دراسة وافية لكل عمل إعلامي قبل تقديمه إلى الجمهور، وبصفة خاصة تلك الأعمال التي تتناول موضوعات الجريمة والإجرام، بحيث لا تعرض الأعمال التي تظهر المجرم بالشخصية المتكاملة والقادرة على الاستحواذ على عطف ومؤازرة الجماهير، أي يجب ألا تُعرض الأعمال التي تظهر المجرم بالشخصية التي ينبغي الاحتذاء بها. وفي هذا المضمار أيضًا، ينبغي عدم إظهار رجل الشرطة على أنه الشخصية القادرة على التغلب على كل المعوقات، الذي يمتلك قدرات جسدية وعقلية متميزة، والذي يعمل بلا كلل، فإنَّ ذلك يثير في نفوس الجماهير الإحساس بالشفقة تجاه المجرم، ولابأس من إظهاره بصورة الرجل العادي الذي يكافح الجريمة والمجرمين.

إنَّ فكرة العقوبة قديمة قدم الجريمة وملازمة لها، ولقد تطور مفهوم العقوبة والهدف منها عبر التاريخ إلى مستوى لا يخفى على أحد، فاستمرت النظرة إلى العقوبة من عهد «سينيك» إلى «أرسطو» باعتبارها وسيلة لإخافة الفرد، ولقد تطور مفهومها في عهد «مونتسكيو» و«روسو» و«بكاريا» باعتبارها أداة قمع. وبدأت الغاية من العقوبة تتحول تدريجيًا إثر قيام ثورة الإصلاح العقابي في القرن الثامن عشر، حيث أصبح الهدف الأساسي للعقوبة إيقاظ ضمير الجاني ودفعه إلى التكفير عن ذنبه. بيد أن تحولاً عميقًا وشاملاً قد جرى في

أهداف العقوبة وغاياتها على أيدي حركة الدفاع الاجتماعي التي ترى أنَّ هدف العقوبة هو تأهيل الجاني وإصلاحه وتقويم سلوكه، بهدف إعادته إلى المجتمع مرة أخرى كإنسان سوي قادر على التعامل والتعايش والتكيف والاندماج..

ولاشك أنَّ التنفيذ العقابي الذي يرمي إلى إيلام الجاني وإيذائه والانتقام منه، قد يدفع به إلى العودة مرة ثانية إلى حظيرة الإجرام والتمرد على المجتمع، نتيجة لما لاقاه من معاملة قاسية وسيئة. وعلى ذلك فإنَّ التنفيذ العقابي الحديث يعامل المتهم طبقًا للقواعد الإنسانية بما يتفق مع المواثيق الدولية الخاصة بحقوق الإنسان، ويجب أن يتم ذلك في ضوء التنمية باعتبار أنه تأهيل إنساني للجناة للعودة بهم إلى الحياة الاجتماعية السوية.. ويجب أن يبنى على أسس علمية وأن يؤمِّن للمسجونين مستوى معيشيًا داخل السجون يليق بالحياة الكريمة، وأن يعمل على ربط المسجونين بالحياة الاجتماعية.. فالكفاح ضد الجريمة هو أحد مهام المجتمع الرئيسة، ولخوض هذا الكفاح ينبغي التسلح بالوسائل كافة، منها ماهو قبل ارتكاب الجريمة ومنها ماهو بعد الارتكاب، ويجب أن يتم ذلك بالأساليب والطرق الإنسانية والحضارية دون تقطيع أوصال المجرمين أو تشويههم، فالهدف حماية المجتمع والأفراد من الجريمة في إطار احترام القيم الإنسانية... فهل من البطولة والفخر أن يحمل الإنسان رأس أخيه بين يديه ليلقي به على قارعة الطريق؟!

تنمية الخيال

التنمية بمفهومها العام هي الجهود المنظمة المبذولة ضمن خطة محددة بهدف استغلال الإمكانيات المتاحة، البشرية أولاً والبيئية ثانياً، بقصد تحقيق مستويات أعلى للمعيشة بمستوياتها كافة، كالتعليم والصحة.. الخ، وصولاً إلى الرفاهية الاجتماعية والاقتصادية.

ولقد شاع استخدام كلمة تنمية "DEVELOPMENT" عقب الحرب العالمية الثانية، وقُسِّم العالم إلى دول متخلفة "UNDER DEVELOPED COUNTRIES"، وأخرى في سبيلها إلى التطور "DEVELOPING"، وثالثة متقدمة "DEVELOPED"، ومعيار التقسيم هو ما وصلت إليه هذه الدول من تطور من حيث البنيان الاقتصادي ومستوى الحياة المعيشية.

ومن المتعذر الفصل بين كل من التنمية الاجتماعية والتنمية الاقتصادية، ولذلك ظهر اصطلاح التنمية الشاملة. فالاستثمار في الجوانب الاقتصادية، كشق الطرق وإنشاء شبكات الكهرباء، لا بد أن يتكامل بالاستثمار في الجوانب الاجتماعية، كمحو الأمية، وهذا ما يفتقده الإنسان العربي، ذلك أن رؤوس الأموال العربية اتجهت نحو الاستثمار في الجوانب الاقتصادية، وأغفلت الى حد ما بناء الإنسان العربي، لذا نجد بعض خريجي الجامعات، وأحياناً اساتذة جامعيين، لا زالوا حتى اليوم مقتنعين بصاحب الخطوة وبمفعول السحر والشعوذة في إحداث أثرٍ في حياتهم، متجاوزين العلاقة الرابطة بين الأسباب والنتائج،

وقافزين على أبسط قواعد المنطق المتمثلة في مقدمات صحيحة تؤدي إلى نتائج صحيحة. وعليه فإننا نجد أنفسنا مع النملة التي تُمجِّد قيمة العمل من خلال ادخارها طعامًا في الصيف لأيام الشتاء، وليس مع صاحب الخطوة أو الولي الذي لم تستفد منه البشرية بشيء.

إن الأنساق الثقافية المتعددة التي تزدهر في بعض عالمنا العربي ينبغي مواجهتها بالتخطيط العلمي حتى تنهار وتظهر أنساق أخرى جديدة تكون لائقة للدخول بنا إلى القرن الحادي والعشرين.

فالتحضر بمعناه الحقيقي لا يكتفي بكيفية إمساك الشوكة والسكينة عند تناول الطعام، أو في طريقة المشي، فهذه شكليات لها أهميتها، إلا أنَّ جوهر التحضر يكمن في الأنماط الحضرية، حباةً ونظاماً وسلوكاً منبثقاً من ذهنية قادرة على التكيف مع مستجدات الحياة ومتغيراتها وقادرة على استيعاب ما يدور في العالم.

فالحدث المعين الذي يقع في المجتمع في وقت محدد، يخلق ديناميكية تتفاعل مع غيرها من العوامل لإحداث التغير الاجتماعي نحو الأعلى، إلى السمو والرقي، وباستطاعة الإنسان تفعيل بعض العوامل وتحييد بعضٍ آخر. فالعامل البيئي، ويشمل جميع مكونات البيئة الطبيعية التي يعيش فيها الإنسان، المناخ والتربة والتضاريس، أمكن تغييره في بعض الدول العربية لإحداث التطوير المطلوب. إنَّ تشجير مدينة أبوظبي مثلاً، ورعاية صاحب السمو الشيخ زايد بن سلطان آل نهيان ـ حفظه الله ـ لها، ورصف الطرق وبناء المدارس... الخ، أدى إلى حدوث تغيرات ديموغرافية، انعكست بشكل إيجابي في سلوك وحياة أبناء البلاد.

وتلعب العوامل الاقتصادية والتكنولوجية[1] والفكرية والأيديولوجية والسكانية والتعليم، دوراً كبيراً في التنمية، فالتطور التكنولوجي يعد ركيزة أساسية لأية عملية تنموية، ويؤدي في الوقت نفسه إلى استحداث أنماط جديدة في العمل.

وتجابه الدول النامية ومن بينها الدول العربية، تحديات متعددة عند مواءمة التكنولوجيا المستوردة مع البيئة المحلية، مما يوجب التعامل مع أساليب ونظم فنية وتكنولوجية نشأت في بلاد أخرى مختلفة. لذا، فإن إساءة استخدام التكنولوجيا عندنا، مرجعها عدم تنمية الإنسان العربي بالقدر اللازم لاستخدام تلك التكنولوجيا، والأمثلة على ذلك كثيرة، كأن يمتلك بعض الأشخاص عدداً من الهواتف المتنقلة يفوق عدد أبنائهم، أو أن يفوق عدد أجهزة النداء الآلي في دولة صغيرة عدد السكان البالغين فيها.

ولتنمية قدرات الإنسان العربي على استخدام التكنولوجيا ينبغي تحقيق الآتي :

1 ـ تحديد الاحتياجات التكنولوجية على ضوء متطلبات خطة التنمية القومية.

2 ـ تحديد الطاقة الاستيعابية للتكنولوجيا المتطورة الحالية والمحتملة.

3 ـ توفير شروط نجاح استخدام التكنولوجيا، بإدخال الحاسب الآلي في المدارس الإبتدائية مثلاً.. الخ

إن ارتباط الإنسان العربي بمجموعة المحرمات والمحظورات والقوالب الفكرية الجامدة والنظم الاجتماعية، بكل إشارات المرور الحمراء فيها، تجعلنا نطرح بكل جدية إشكالية حاجتنا إلى تنمية مخيلتنا وممارسة حقنا

---

(١) التكنولوجيا: كلمة إغريقية الأصل تعني فن استخلاص مواد أولية صناعية من الموارد الطبيعية من أجل تأمين المواد والسلع التي من شأنها أن تغطي الحاجات المادية للإنسان.

الطبيعي في التخيل. فالتحرر الذهني من النظام الإجتماعي "SOCIAL ORGANIZATION" سيحدث أثره في تنمية عناصر الثقافة، سواء أكان ذلك في الفن أو العلم أو الصناعة، كما أنه قد يؤدي إلى استحداث أشكال وقواعد جديدة للنظام الاجتماعي السائد. والإنسان لا يتقبل الجديد بسرعة، فعندما ظهرت السيارات قاومها رجال المال في حي «وول ستريت» وامتنعوا عن شراء أسهم شركاتها، لأنهم لم يستطيعوا تصوُّر وجود شيء يمكنه أن يقهر الحصان ويتفوق عليه في السرعة. وكذلك الأمر في الميادين الاجتماعية، فلقد تطلَّب الأمر عشرات السنين لكي يوافق أصحاب المؤسسات الصناعية على تحديد ساعات العمل.

ولقد انطلقت تلك التغييرات الصناعية والاجتماعية المشار إليها، من خيال إنسان تحرَّر من قواعد الواقع ونظمه وتصوَّر نظاماً آخر ورؤى أخرى لواقع جديد، بثها عبر اللغة وانتقلت الى العالم فأحدثت التغيير.

كان الخيال الإنساني في أوج تألقه إبان العصر الإغريقي، فترك لنا تراثاً عظيماً ومنبعاً لا ينضب للشعراء والكتاب والفنانين، فمسرحيات جان راسين، تستمد أحداثها جميعها من الأساطير الإغريقية، بدءاً من مأساة «طيبة» وصولاً إلى «أتالي» مروراً «بفيدرا».

وكثير من الرسامين استمدوا أفكار رسوماتهم من الميثولوجيا الإغريقية فجسَّد فرنشسكو جويا التهام «كرونوس» لأبنائه، وأبدع بارثولو موس سبرانجر في تصوير «مينرفا»، كما أضاء رمبرانت خلال لوحة «خطف برو سيربينا»، وكذلك رافائيل في تجسيده لـ «أبوللو ومارسياس»، ودومينكيتو خلال رسمه لوحة «ديانا وأكتايون».

ولقد كانت خيالات الإغريق إلهامًا متدفقًا للموسيقيين أيضًا. فألف ريتشارد شتراوس أوبرا «هيلينا» المصرية، التي تتناول الآثار المترتبة على حرب طروادة وعفو منيلاوس عن هيلينا، وتناول أوفنباخ مأساة «أورفيوس» في الجحيم من خلال أوبرا، وأبدع فرانزليست في سيمفونية «بروميثيوس» وكذلك كارل أورف في أوبرا «أوديب ملكًا».

وارتبط الأدب الدرامي، الذي استوحى موضوعاته من الصراع الأبدي بين آمال البشر والزمن المميت، بالأسطورة التي لم تعد تعني بعض المعاني الغامضة الدالة على الأشياء الغريبة صعبة التصور، بل تلك التي تدل على نسق فكري. فعندما جلس «ميداس» إلى المائدة المليئة بما تشتهيه النفس من طعام وشراب ـ عقب تحقيق أمنيته بتحول كل ما يلمسه إلى ذهب ـ أحسَّ بثقل المأساة، عندما تحوَّل ما يلمسه من الطعام والماء إلى ذهب بين يديه، وتمنى حرمانه من قدراته الجديدة، وكره الذهب أكثر مما كره الموت، وتوسل إلى الله قائلاً: «لقد أخطأت.. لقد أخطأت ولا مرد لما ارتكبت» وتضرع إليه لكي يخلصه من محنته، فرده الله إلى طبيعته الأولى، هذه الحكاية الأسطورة، ذات دلالة واضحة على نمط التفكير الإنساني السائد حينذاك. ومثلها حكاية سيزيف الذي حكمت عليه الآلهة بأن يحمل حجراً على ظهره ليصل به إلى قمة الجبل، فيسقط الحجر منه ويعود سيزيف لحمله مرة أخرى، إلى ما لا نهاية، وما تمثله هذه الحكاية من دلالة على عبثية الحياة وعدميتها في بعض نواحيها على الأقل.

وبالنظر إلى هذه الأفكار تتضح ماهية الإنسان وطابع العقل البشري في مراحله المختلفة الذي تطور إلى الاستقلال الفكري على أيدي المفكرين النظريين في القرن السابع عشر، حيث تحرر العقل الغربي من سلطة الفكر الأسطوري واللاهوتي وأصبح قادراً على النهوض والوقوف

على قدميه. ولقد آن الأوان للعقل العربي للانطلاق كالسهم إلى عنان السماء بإطلاق الذهن من عقاله ودفعه إلى التخيل والمزيد من التخيل المنظم، فيقف تقدم الإنسان وتطوره في اللحظة التي لا يستطيع فيها أن يتخيل، وتتباطأ معدلات رقيه وتنميته بالقيود التي تحد من قدرته على التخيل.

وحقنا في التخيل ـ نقطة الانطلاق إلى الابداع ـ يلزمنا ألاّ نفرط به بالرضوخ إلى القوالب الفكرية الجامدة التي نتلقنها منذ الصغر، فالحدس الأسطوري هو تخيل يحمل في أحشائه واقعًا قادمًا يوجد في ثناياه عوامل فنائه لصالح تخيل آخر لواقع متجدد متجاوزاً الواقع المليء بالألم الجميل، فالواقع المعاش غالبًا مؤلم، تلطّفه رياح ورذاذ التخيل، فلنتخيل ولنتدرب عليه من أجل إلغاء جزئي للواقع اليومي.

... إنها دعوة إلى ممارسة الحق الطبيعي في التخيّل، تَتَخيّل قبل أن تنام يوميًا لمدة عشر دقائق فقط ما شئت، وابذل جهداً خياليًا كي تتخيل أنك تعيش في عصر آخر كنت تتمنى لو أنك ولدت فيه، تخيّل أنك لم تفقد في الحياة من تحب وأنه مازال حيًا، ودع لأفكارك تداعياتها، تخيل أنك طائر محلق في السماء تشاهد الأرض من علو بما عليها من البشر، تخيّل أنك على حافة هاوية على وشك السقوط الدائم فيها، تخيّل أنك ذُقت الموت غرقًا وولدت من جديد، تخيّل أنك متَّ مرتين، تخيّل ماشئت، فالتنمية المخيلية لا تقل أهمية عن التنمية الاجتماعية والاقتصادية، فالأولى تسعى إلى سعادة البشر والثانية إلى رفاهيته.

وتخيّل كم كان سيخسر العالم لو لم يتخيل الإغريقي «بينيلوبي» الحائكة على مغزل تنسج خيوط القدر، وتخرب في الليل ما حاكته طوال النهار لكي تؤخر الأجل إلى ما لا نهاية، وحذار أن تتعجل الرحيل، فرحلتنا واحدة.

بيان

إلى القرن الحادي والعشرين

كان لثورة الفلك التي قادها كوبرنيكوس في القرن السادس عشر، ونادى من خلالها بأن الأرض ليست مركز الكون، بل هي كوكب صغير في فضاء لا محدود، تدور حول نفسها وحول الشمس، ضمن الحركة المزدوجة للكواكب... أثر عظيم في تطور البشرية.

وبفضل تلك النظرية استطاع الإنسان في منتصف القرن العشرين مغادرة كوكب الأرض ورؤيته من الخارج، فتبين له أن تلك الكرة السابحة في الفضاء بلا شراع، التي تعج بالحركة والحياة والمليئة بالأشواك والكراهية، لا تظهر منها سوى مسطحات مائية وغيوم وضباب ويابسة ولا يكاد يبدو أي أثر لنشاط الجنس البشري عليها. وعندما أرسل البشر «هابل» لاستكشاف الفضاء العام 1990م، كشف لنا هذا التليسكوب تفاصيل مذهلة عن الكون، فأوغلت عيونه في حديقته ورأى أبعد مجرة معروفة بدت كما كانت عندما كان عمر الكون حوالي عُشر عمره الحالي، أي عندما كان عمره من 1-2 بليون سنة تقريبًا. فاستطاع الإنسان أن يرى ماضي الكون، وفشل في رؤية ماضيه، وكم تمنَّى لو توجّه عدسات هابل إلى الكرة الأرضية ذاتها، لمحاولة اكتشاف مكنونات البشر، ولكن العدسات تعجز عن الوصول إلى أعماق الإنسان، فالحب والكراهية بحاجة إلى معايير فلسفية حاكمة وليس إلى عدسات موجّهة. والإنسان إلى الآن لم يملك القدرة على المواءمة ما بين الجهود البشرية وقوانين

الطبيعة، فالأراضي الزراعية تتراجع لصالح التصحر، ومصادر المياه تنضب والأشجار في الغابات تقطع، فما يفعله البشر بأمِّنا الأرض فاق ما فعلته البراكين والزلازل وقوى الطبيعة المنفلتة من دمار وتدمير.

إن التدهور البيئي المتنامي وازدياد أعداد الفقراء وزيادة الهوة ما بين الدول الغنية وتلك الفقيرة، واتساع هذه الهوة ما بين فقراء وأغنياء البلد الواحد، في الوقت نفسه الذي تقدم لنا فيه التكنولوجيا ـ سريعة التطور يوميًا ـ حلولاً متعددة وآفاقًا جديدة لاستغلال أفضل للأراضي الزراعية وللمياه ولغيرها من الموارد البيئية، وأصبح باستطاعتنا نقل المعلومات والبضائع والأفكار بسرعة مذهلة مما جعل كوكبنا الأرضي صغيراً كما يبدو لنا عندما نراه من الفضاء، تطور من جهة وتدهور من جهة أخرى. فأعداد الناس الذين لا يقرؤون ولا يكتبون تتزايد، وكذلك الذين لا يملكون مساكن صالحة للمأوى والذين لا يملكون المأكل المناسب، فالجائعون في ازدياد، والتكنولوجيا تخلق باستمرار فرصًا أكثر وإنتاجًا أوفر، ولكن الرؤية النظرية التي تميز ما بين الحق والباطل والعدل والظلم هي ما نفتقده ونحن مقبلون على القرن الحادي والعشرين. ولم يمتلك البشر بعد نظمًا اقتصادية أو سياسية للتوزيع العادل لإنتاج الكرة الأرضية على سكانها، بينما يطوي القرن العشرون صفحاته على أحلام تحطمت على صخرة الحقيقة. فالحربان العالميتان الأولى (1914 ـ 1918م) والثانية (1939 ـ 1945م) وما خلفت من ملايين القتلى والجرحى والمعوقين، والحروب الإقليمية المستعرة في كل مكان، وملايين الألغام الأرضية المتربصة بالضحايا، وآلاف الطائرات التي تخترق أسراب النورس لتنشر القتل والدمار وتضيء السماء بنيران الرشاشات والمدافع، تلك الأهوال التي شهدها القرن العشرون لأهداف ضبابية،

تقودنا إلى القرن الحادي والعشرين بدون نظرية شاملة وبدون منهج. فالاشتراكية كنظام اقتصادي أثبتت فشلها والرأسمالية لم تقدم البديل الناجع.

إن ما ينقصنا في الواقع هو الحقيقة التي نبحث عنها وتخدعنا وتراوغنا، فنعتقد أننا أمسكنا بها أو كدنا، فإذ بها تفاجئنا وتخرج لنا لسانها ومن عدة اتجاهات، مرة في تسابق نووي ما بين الهند وباكستان فيما يرزح شعبيهما تحت سياط الفقر والجهل والجوع، ومرة في ممارسات إسرائيلية مفعمة بالقسوة على نساء وأطفال لا ذنب لهم سوى أنهم متمسكون ببقايا أرض كانت لهم وستبقى، ومرة أخرى تراوغنا الحقيقة بشكل مفزع في هذا التيه العظيم، حيث ثمانمائة ألف من البشر، وليس من الدراهم أو من الحشرات الضارة، يقتلعون من أرضهم فقط لأنهم ألبانيون. فما معنى التطهير العرقي في القرن العشرين؟ ما يحدث يؤكد بأن تاريخ الإنسان لم يبدأ بعد فما زلنا في مرحلة ما قبل الإنسانية.

إن التراكم المعرفي منذ الحضارات الفرعونية والإغريقية وما بين النهرين، وصولاً إلى عصر النهضة الذي أفرز كوبرنيكوس ونيوتن، وما قدّمه المفكرون العظام في تاريخ البشرية، من سقراط الباحث عن الحقيقة، وصولاً إلى فولتير، فيلسوف الحرية، كل هؤلاء قدموا الكثير للقرن العشرين، قدموا لنا مفاهيم الحرية والإخاء والحق والتسامح والعدل واحترام حقوق الإنسان، ماذا قدمنا نحن للأجيال القادمة من مفاهيم إنسانية؟ قدمنا «نهاية التاريخ» لفوكوياما و«صراع الحضارات» لهينتنغتون!! لقد قدّم العبيد الآلاف من القتلى في سبيل الحرية، وقدم الفرنسيون في ثورتهم الآلاف على المقصلة في سبيل الإخاء والمساواة،

فما قدمته البشرية في عصور النهضة من تضحيات أتى بمفاهيم وقيم إنسانية ندين لهم بها، أما آلاف القتلى في فلسطين وكوسوفو وأمريكا اللاتينية وأفريقيا في القرن العشرين، فهم قرابين تقدم لذوي المصالح الاقتصادية ولمزيد من تراكم رأس المال دون أن يكون لتلك التضحيات من مردود يؤدي إلى مزيد من حقوق الإنسان. إن دوافع المصالح الاقتصادية ضيقة الأفق سيظل عالقًا كالدنس في القرن العشرين، وما لم ينفض البشر ثياب المصالح الشخصية الرثة فستظل أشباح القتلى تحوم في الليالي الموحشة. إن أكثر الوصمات عيبًا أن يقدم الأبرياء على مذبح المصلحة الاقتصادية لتكريس المزيد من التبعية والهيمنة السياسية لدولٍ لم يتعد تاريخها الخمسمائة عام... وفي الأرض متسع للجميع.

فالقوانين والنظريات الفلكية التي أصبحت من بديهيات العلم الحديث كانت في عصر النهضة تهمًا بالكفر تزج بأصحابها في غياهب السجون وإلى الموت حرقًا. وقد ظلت نظرية كوبرنيك في الفلك مجرد معادلات رياضية لا يفهمها رجال الدين حتى جاء جوردانو برونو وشرح مغزاها واستخلص منها بأن الكون لا نهائي وبأن وراء عالمنا الفلكي عوالم بلا حصر وزعزع بذلك الاعتقاد الديني بأن الأرض هي مركز الكون وبأن الإنسان هو القصد من الخليقة. وقال بأن هنالك عوالم مأهولة غير عالمنا.

رجال الفكر والحكماء الذين نادوا بالتجديد الأخلاقي أو العلمي، لم يلق أغلبهم التكريم أثناء حياتهم، بل دفعوا حياتهم أو حريتهم ثمنًا لدعوتهم، وكان ذلك هو الثمن الذي دفعته البشرية في سبيل حرية الفكر والبحث العلمي، ولولا انتصار النظريات العلمية وصمود رجال الفكر في مواجهة الكنيسة لظلت أوروبا تنظر إلى الكتاب المقدس وكأنه الكتاب

الجامع المانع لكافة العلوم، لا يفرط في شيء من علوم الأرض والسماء.

وارتقاء رجال العلم والفلسفة مراكز مرموقة في الدولة ظاهرة حديثة، فالعلماء مثل باقي المجددين الأخلاقيين كان عليهم أن يخوضوا معارك عنيفة ليعترف بهم فقد نفى بعضهم وأحرق آخرون وبمرور الوقت تبين لدى الدولة أن المحدثين سواء علماء أم اجتماعيون يمكن أن يوظفوا كأداة للسلطة ويفضل العلم لدينا الآن النور الكهربائي والسينما وأصبحت الحياة أسهل، ويفضل العلم نستطيع نشر الأنباء والمعلومات سواء كانت حقيقية أم مضللة من خلال وسائل الإعلام وكل حياتنا بما فيها من تطور تم بفضل العلم وهذا التطور الشاسع تدعمه الدول حاليًا ولكنه في بداياته كان متعارضًا مع الدولة، ولم تكن المعارضة للعلوم في الماضي مستغربة، فلقد جاء المفكرون بآراء تناقض العرف السائد فاتهموا بالكفر، فعندما أعلن انا كساجوراس أن الشمس حجر أحمر ساخن وأن القمر جزء من الأرض اتهم بالكفر ونفي من أثينا لأن الشمس والقمر في مفهوم ذلك الزمان كانا آلهة جديرة بالتوقير، وكانت السطوة على قوة الطبيعة التي منحها العلم هي التي أدت إلى قليل من التسامح مع العلماء مع أن قدراتهم في البداية كانت منسوبة للسحر.

نحن بحاجة إلى مفاهيم وقيم جديدة توازي الدور الحاكم الذي تلعبه التكنولوجيا في تغيير عمليات الإنتاج والتي تقوم على البحث والتجديد والمحكومة بالرغبة في زيادة رأس المال وتقليل التكاليف، والحق أقول لكم: من يقدم الخبز والزعتر لا يمكنه تقديم الرصاص، ومن يحسن القراءة فليتهجَّ السلام... السلام.